منهج الكتابة التاريخية عند ابن خلدون

أ/ عبد الله زين/ قسم العلوم الاجتماعية/ جامعة الشهيد حمه / الوادي.
zine.ph12@gmail.com

الملخص:

يعتبر ابن خلدون من أبرز المفكرين الذين خاضوا في مجال التاريخ، في الحضارة العربية الإسلامية، والحضارة الإنسانية، إلا أنه انفرد عن غيره من الباحثين في مجال التاريخ، بنظرته المعمقة للتاريخ؛ والتي تتجلى في تمييزه بين ظاهر التاريخ وباطنه، كما أنه ربط التاريخ بالعمران؛ فاتخذ من هذا الأخير وسيلة في علم التاريخ؛ بحيث جعل من قوانين العمران معايير لتمييز الصدق من الكذب في التاريخ .

كما تميز ابن خلدون عن غيره من المهتمين بالتاريخ، بمنهجه العلمي في تناول أحداث التاريخ؛ بحيث أسس الكتابة التاريخية على جملة من القواعد والمعايير العلمية؛ والتي من أبرزها : الروح النقدية، الموضوعية، الروح الوضعية، الإيمان بمبدأ النسبية، الإيمان بمبدأ الحتمية. إضافة إلى ذلك اعتمد ابن خلدون في الكتابة التاريخية، على المشاهدة الحسية والاستقراء، والمقارنة أو المقابلة (قيس الغائب على الشاهد) .

وقد اتضح لنا من خلال ما سبق أن للمنهج الخلدوني في الكتابة التاريخية والتاريخ، أهمية بالغة؛ تتجلى في إضفاء صفة العلمية على التاريخ، وإعطاء مصداقية للأبحاث التاريخية، وتنقية التاريخ من شوائب الخرافة والأسطورة، بعد أن كان التاريخ أبعد ما يكون عن العلم؛ بحيث كان مجرد عظات وعبر ذات طابع أدبي وأخلاقي .

الكلمات المفتاحية:

ابن خلدون– منهج الكتابة التاريخية – التاريخ – علم العمران البشري .

SUMMARY

Ibn Khaldoun is considered as one of the intellectuals who took part in history, Arabic Islamic civilization as well as the human one. Because of his deep look of history, he linked history with social life so that to make laws to differ fake historic facts from true ones.

In addition, he took part in history events, and established the historic writing based on scientific rules like the critical spirit, relativity belief. Moreover, he depended on the induction and comparison in the historic writing.

Above all, it's clear that Ibn khaldoun's way of historic writing is too important because he added scientific spirit to history so that to protect history from myths and legends.

***مقدمة :**

إن المتأمل لواقع الأمة العربية الإسلامية، يدرك تمام الإدراك ما تعانيه من تمزّق في الصفوف وضعف وسلبية، على خلاف الكثير من الأمم الأخرى، التي تتمتع بالتقدم والرقي الحضاريين. لكن السؤال الذي نطرحه في هذا السياق هو: ما هو سرّ هذا التخلّف وهذه السلبية اللذان تعانيهما أمتنا ؟

لا شك أن الأسباب كثيرة ومتعددة، لكن ربما أبرزها؛ تخلي الأمة العربية الإسلامية عن ثوابتها وأصالتها ورموزها خاصة في مجال الإبداع العلمي والثقافي، وإهمالها لكل فكر يعبّر

عن موروثها الثقافي الرائد. كما أن من أسباب جمود الأمة العربية الإسلامية، سيطرة الفكر اللاعلمي عليها بمختلف صوره وأشكاله، وأبرزها: التفكير الخرافي السحري، والتفكير الأسطوري. ومن الميادين التي خضعت وما تزال تخضع لهذه الأنماط من التفكير (التاريخ)؛ فما زال الكثير منا يتناول أحداث التاريخ من منظور غير علمي، مبتعدا عن النظرة العلمية في معالجة هذا النوع من القضايا. وفي وضع كهذا يصبح التاريخ عرضة للتزييف والتحريف والكذب .

وهنا يأتي الحديث عن ابن خلدون كأحد الرموز والمعالم التي شهدها تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بل والحضارة الإنسانية عامة. فحتى يتخلص التاريخ من التحريف والكذب، لابد من إخضاعه للمنهج العلمي وتناول قضاياه من منظور علمي موضوعي، وهذا ما حاول ابن خلدون تجسيده في حديثه عن التاريخ وحوادثه. وبالنظر إلى أهمية المنهج الخلدوني في تخليص التاريخ من الخرافة والأسطورة، وتناوله تناولا علميا، ارتأيت أن أتناول منهج الكتابة التاريخية عند ابن خلدون، وحاولت من خلال هذا العمل أن أبرز حقيقة وأهمية المنهج الخلدوني في الكتابة التاريخية .

يظهر جليّا لكل دراس لابن خلدون ومحاول الإلمام بما كتب عنه، أنه عبقرية فذّة ربما يصعب أن تتكرر. وتظهر عبقرية هذا الرجل في تقديمه رؤية حضارية متميزة معبّرة عن أصالة أمته، ومتطلعّا من خلالها إلى مستقبل زاهر للأمة العربية الإسلامية. ومن أجل ذلك حظي ابن خلدون باهتمام كبير، ويظهر ذلك من خلال الدراسات الكثيرة لهذه الشخصية؛ وقد أكد عبد الرحمان بدوي- من خلال إحصائه للبحوث المختلفة التي تناولت ابن خلدون- أن هناك أبحاثا كثيرة تناولت فكر ابن خلدون بالدراسة والبحث، ونذكر منها: تحقيق مقدمة ابن خلدون من طرف د/علي عبد الواحد وافي، والعصبية

والدولة لمحمد عابد الجابري، ونصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون لـ: عبد الله شريط، ودراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري، وغيرها من الدراسات.

تجسّد إبداع ابن خلدون في ما تركه من مؤلفات وخاصة كتابه:"العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" والذي استهلّه بمقدمة صارت تعرف "بمقدمة ابن خلدون"، والتي تمثل كنزا لا ينضب نظرا لما تحتويه من أفكار **وآراء** متنوعة حول العمران والتاريخ والسياسة والاقتصاد والتربية وغيرها من المجالات المعرفية .

إنه لمن المؤسف حقا أن تنجب أمة مفكرا مثل ابن خلدون ،- وهو من أروع المفكرين في تاريخ الإنسانية -، دون أن يترك وراءه من يأخذ بآرائه ولا أتباعا يواصلون طريقه، كما هو الحال عند الكثير من المفكرين والفلاسفة الغربيين، وهو ما دعا الأستاذ دي بور "DE BOER"إلى القول:<< لقد سار أمل ابن خلدون من دون أن يخلفه من يتم بحثه، ولكن وقع ذلك في غير بلاد الإسلام، فكما أنه كان دون سلف، فكذلك بقي دون خلف >>[1].

من هذا المنطلق وقع اختياري على ابن خلدون. وموضوع المقال يدور حول المنهج الخلدوني في الكتابة التاريخية، ويمكن صياغة الإشكال العام للموضوع كالتالي:

ما حقيقة منهج الكتابة التاريخية عند ابن خلدون ؟

ماهي القواعد المنهجية التي اعتمدها ابن خلدون في ممارسة الكتابة التاريخية ؟

ما أثر المنهج التاريخي الخلدوني على الكتابة التاريخية وعلم التاريخ ؟

انطلاقا من الأسئلة السالفة الذكر، فقد جاء ترتيب عناصر المقال كما يلي:

*مقدمة

1-تعريف بابن خلدون

2-التاريخ والعمران في فكر ابن خلدون

3-قواعد الكتابة التاريخية عند ابن خلدون

4-أثر المنهج التاريخي الخلدوني على الكتابة التاريخية والتاريخ

*خاتمة

1-تعريف بابن خلدون(732هـ-808هـ/1332م-1406م):

أولا-نسبه:

هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين ابن خلدون، اسمه عبد الرحمن، وكنيته أبو زيد، ولقبه ولي الدين، وشهرته ابن خلدون .[2]

ولد عبد الرحمن ابن خلدون بتونس في غرة رمضان عام (732هـ)، الموافق ل/ 27 مايو سنة (1332م)، من أسرة ترجع إلى أصل يماني حضرمي ، وأن نسبها في الإسلام يرجع إلى صحابي إسمه"" وائل ابن حجر" حسب ما ذكر العلامة "ابن حزم" في كتابه " جمهرة أنساب العرب "، في سياق حديثه عن أجداد ابن خلدون، وقد ذكر ابن خلدون في" كتاب رحلة ابن خلدون"<< ونسبنا حضرموت، من عرب اليمن ، إلى وائل ابن حجر، معروف وله صحبة >>[3].

ثانيا–مؤلفات ابن خلدون:

إذا كانت لابن خلدون مكانته العلمية المرموقة، فإن ذلك يتجلى من خلال ما تركه من مؤلفات، وقد ذكرها "حاجي خليفة " في كتابه "كشف الظنون"529/5، كالتالي:

أ– تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي.

ب– رحلة.

ج– شرح الرجز لإبن الخطيب في الأصول.

د– شرح قصيدة ابن عبدون.

هـ– شرح قصيدة البردي.

و– طبيعة العمران.

ي –" كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر " في التاريخ. وفي آخر هذا الكتاب ، كتاب التعريف بابن خلدون [4].

ثالثا–عوامل بروز ابن خلدون:

قبل تناول موضوع التاريخ والعمران في فكر ابن خلدون ، نحاول الوقوف على أهم العوامل التي صنعت شخصية ابن خلدون وصقلت موهبته، وهي الممثلة في مصادر تكوين شخصية ابن خلدون، وإذا أردنا أن نتتبع حياة ابن خلدون ونتأمل مختلف جوانبها ووجوهها ونتعرف على العناصر الأساسية التي ساهمت في صقل شخصيته ، استطعنا أن نردها إلى ثلاثة عوامل رئيسية وهي:

نشأته العربية الاسلامية، تحصيله العلمي، تجاربه السياسية .

أ–نشأته العربية الاسلامية:

لقد كان عبد الرحمان بن خلدون ابن ثقافته الإسلامية وابن بيئته العربية الإسلامية، كما كان نبتة طبيعية للثوابت الإسلامية، فلم يتجاوز ابن خلدون مثله في ذلك مثل"أبي محمد علي بن حزم الأندلسي" أي منطلق تراثي، بل كان ابداعهما منبثقا من عمق الثقافة العربية الاسلامية، أي مستمدا من القرآن والسنة، اللذان يشكلان الطريق الصحيح الموصل للإبداع الإيجابي، وعبثا من حاول أن يسلخ ابن خلدون وابداعاته عن بيئته العربية الاسلامية ويفصله عن موروثه الثقافي الإسلامي مثل محاولة الدكتور"علي أومليل"وغيره من المتعصبين من الغربيين[5].

ب–تحصيله العلمي:

إذا كان ابن خلدون قد نشأ في أسرة عريقة في مجالي العلم والسياسة، فإن ذلك ساعده على محبته للعلم وإقباله عليه وكذا على سعة الاطلاع، فلم يتركز اهتمام ابن خلدون على مجال واحد فقط بل شمل اطلاعه العديد من المجالات مثل: القرآن على يد أستاذه" أبي عبد الله سعد محمد سعد ابن برال" ودرس العلوم اللسانية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب على أيدي بعض الأساتذة مثل:"أبو عبد الله محمد بن العربي الحصايري" و "أبو العباس أحمد بن القضار" و"أبو عبد الله محمد بن بحر"وغيرهم. ودرس علوم الحديث على يد" شمس الدين أبي عبد الله الوديشي" ودرس الفقه على أيدي مجموعة من الأساتذة وأبرزهم:"أبو عبد الله محمد الجياني" و"أبو القاسم محمد القصير" . كما درس العلوم العقلية أو الفلسفية كالمنطق وما وراء الطبيعة والعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية على يد" أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي" ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون كان معجبا

أيما إعجاب بالعلوم الرياضية بما يميزها من وضوح ودقة ويقين مثله في ذلك مثل" ديكارت" وبالتالي فقد اتبع المنهج الرياضي في تناوله لمسائل العمران والتاريخ[6] .

ج–تجاربه السياسية:

مرّ بنا في التعريف بابن خلدون أنه انحدر من أسرة عرفت بعراقتها في العلم والسياسة، فقد كان لبني خلدون شأن كبير في الحياة السياسية في الأندلس إذ سطع نجمهم في عهد الأمير" عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان الأموي "(274–300هـ)، ويذكر التاريخ أن بعض أجداد ابن خلدون مثل "كريب بن عثمان بن خلدون" وأخوه" خالد" توليا إمارة اشبيلية مدة من الزمن، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في كتابه" التعريف" فقال:<< وتولى كبر ذلك كريب ابن خلدون، واستقل بإمارتها>>؛ أي إمارة اشبيلية. وهكذا استمر ابن خلدون على نفس النهج إذ عرف بمغامراته السياسية، فالمتتبع لحياة ابن خلدون يجد أنه عاش حياة شهدت أجواء شديدة الاضطراب كثيرة العواصف، فرغم أن ابن خلدون استهلّ حياته بطلب العلم إلا أنه ما كاد يبلغ العشرين من عمره حتى انقطع عن الدراسة وخاض غمار الحياة السياسية المضطربة، التي كان يتميز بها المغرب العربي في تلك الفترة، أما عن الأسباب التي دفعته إلى ذلك، فهما سببان: أولاهما الطاعون الذي أتى على والديه ومعظم أساتذته والذي انتشر في البلاد سنة 749هـ، وثانيهما حب ابن خلدون للمغامرات والتنقل بين البلدان.

يستطيع المتتبع لحياة ابن خلدون أن يميز أربعة أطوار في حياة عبد الرحمن بن خلدون وهي: طور الدراسة الذي استمر حتى سن العشرين، وطور العمل السياسي والذي استمر من سنة 752هـ إلى غاية سنة 776هـ، وطور التأمل والتفكير في قلعة بني سلامة والذي

استمر مدة أربع سنوات؛ أي حتى نهاية سنة 780هـ، أما الطور الأخير فانصرف فيه ابن خلدون إلى التدريس والقضاء .

ما يهمنا في هذا السياق هو طور العمل السياسي، والذي امتد نحو عشرين عاما، والذي تقلّد ابن خلدون خلاله عدة مناصب سياسية وخاض العديد من المغامرات، وقد بدأت رحلة المغامرات السياسية بتونس حيث تولى أواخر سنة 751هـ كتابة العلامة في عهد" ابن تافراكين"، وكانت هذه أول وظيفة تقلّدها ابن خلدون من وظائف الدولة، لكن ابن خلدون فرّ إلى" بسكرة" – وهي بلاد المغرب الأوسط– بعدما زحف أحد الأمراء الحفصيين على تونس، وفي سنة 756هـ تقرب ابن خلدون إلى" أبي عنان" الذي حكم المغرب الأقصى وزحف على المغرب الأوسط واستولى على عاصمته تلمسان، وحينها أصبح ابن خلدون ضمن المجلس العلمي" لأبي عنان" حيث استعمله في الكتابة عنه، لكن ابن خلدون اتهم بالتآمر ضد السلطان نهاية سنة 757هـ مما أدى إلى القبض عليه و سجنه، وفي ذلك يقول ابن خلدون:<< ثم اعتلى السلطان آخر سبع وخمسين...وكان فيما أنمي إليه أني داخلته في ذلك، فقبض عليّ وامتحنني وحبسني وذلك في ثامن عشر صفر سنة ثمان وخمسين>>[7].

لكن لما توفي السلطان سنة 759هـ أطلق سراح ابن خلدون وأعيد إلى وظيفته حيث استمر في مزاولتها لغاية سنة 764هـ، وهي السنة التي سافر فيها إلى الأندلس وتحديدا إلى" غرناطة" حيث تقرّب من سلطانها "أبي عبد الله محمد بن يوسف بن اسماعيل بن الأحمر" والذي اختاره سفيرا بينه وبين ملك قشتاله، وقد نجح ابن خلدون في تأدية هذه المهمة حيث أصبح رجل سياسة من الدرجة الأولى، وفي سنة 766هـ انتقل إلى" بجاية" وتولى فيها منصب الحجابة، وفي الوقت نفسه اشتغل بالتدريس بجامع القصبة، واستمر ابن خلدون في هذا المنصب، لكنه سرعان ما فرّ إلى" بسكرة" خوفا من سلطان قسنطينة

الذي استولى على بجاية، معتمدا على صداقة تربطه بشيخها" أحمد بن يوسف بن مزني"، فيقول في كتابه التعريف:<< وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقصبة السلطان، فتفاديت من ذلك، وخرجت إلى السلطان أبي العباس فأكرمني وحباني، وأمكنته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها، وكثرت السعاية فيّ، والتحذير من مكاني، وشعرت بذلك، فطلبت الاذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك، فأذن لي بعد لأي،...وقصدت بسكرة، لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن المزني >>[8].

طاب بابن خلدون المقام "بـ: بسكرة" فأستقر بها نحو ست سنوات هو وعائلته وتعرف خلال هذه الفترة على بعض البوادي والمدن، كما احتك بأهل البوادي والأرياف وصار خبيرا في شؤونهم، وظهر ذلك جليا في حديثه عن العمران البدوي والعمران الحضري، إذ استفاد من رحلاته التي قام بها بين مناطق بلاد المغرب، كما أنه صاغ معرفته الواسعة بالبدو وبطبيعتهم ضمن نظريته عن العصبية والملك(الدولة).

و بعد هذه الفترة قرّر الانتقال إلى تلمسان حيث السلطان" عبد العزيز"،إلا أنه غيّر وجهته إلى" فاس" بعدما علم أن البلاط قد تحوّل إلى فاس وحدث ذلك سنة 776هـ.وبعد مغامرات سياسية خاضها ابن خلدون قرّر الرحيل إلى غرناطة لدى السلطان" ابن الأحمر" وكان ذلك سنة 776هـ، لكنه عاد بعد ذلك إلى تلمسان مع أسرته واستقرّ بها بعد أن أرهقته الحياة السياسية بمغامراتها ودسائسها، لذلك اشتاق إلى حياة الهدوء والتفكير والتأمل في ما مر به من تجارب فقرر التفرغ للتأليف، ومن أجل ذلك نزل عند أصدقائه بني عريف بقلعة بني سلامة حيث قضى مع أسرته أربع سنوات ألف خلالها كتاب" العبر" ، وظل ابن خلدون بقلعة بني سلامة إلى غاية سنة 780هـ، ثم اتجه بعد ذلك إلى تونس حيث عمل بالتدريس، واشتغل مع السلطان" أبي العباس"، إلا أنه اتهم بالتآمر ضد السلطان، مما دفعه إلى التوجه إلى القاهرة بحجة آداء فريضة الحج

وكان ذلك سنة 784هـ لكنه لم يؤد حينها فريضة الحج بل استقر بالقاهرة إلى أن وافته المنية بها سنة 808 هـ[9].

وهكذا استفاد ابن خلدون من مصادر ثقافته السالفة الذكر في تناوله لمسائل العمران والتاريخ، فجاء تفسيره للظواهر الاجتماعية والتاريخية معبّرا عن ثقافته العربية الإسلامية، كما أنه استفاد من مختلف العلوم التي تلقاها في صغره عند تحليله للظواهر التي تناولها بالدراسة، بالإضافة إلى ذلك استطاع أن يشارك في الحياة السياسية ويخوض غمارها ليتأملها ويحللها ثم يحلق فوقها ويجعلها موضوعا للدراسة يتناوله بطريقة موضوعية مستخلصا النواميس والقوانين التي تحكم ظواهر الاجتماع والتاريخ .

3–التاريخ والعمران في فكر ابن خلدون:

أ–التاريخ:

تناول ابن خلدون في كتابه (العبر) موضوعين محوريين في فكره، هما: التاريخ والعمران، وقبل توضيح العلاقة بينهما في الفكر الخلدوني، لابد من توضيح معنييهما، وتجدر الإشارة إلى أن ابن خلدون أوضح ذلك في مقدمة (العبر) .

قبل الحديث عن علاقة التاريخ بالعمران في الفكر الخلدوني، نحاول أن نلقي نظرة عن تعريف التاريخ بشكل عام ثم تعريفه عند المسلمين ومنهم ابن خلدون .

يكاد يجمع كل الفلاسفة على ارتباط مصطلح التاريخ بالإنسان كوعي؛ ذلك لأن الانسان وحده هو الذي يملك تاريخا يصنعه بنفسه أو على الأقل يشارك في صنعه، في حين أن الحيوانات والجمادات لا تاريخ لها، يتضح إذن أن التاريخ يمثل معطى من

معطيات الوجود الإنساني ومن هنا يمكن أن نطرح مجموعة من الأسئلة التي تتعلق بالتاريخ وأبرزها[10] :

- ما المقصود بالتاريخ في أبسط تعريفاته ؟
- ما مفهوم التاريخ عند ابن خلدون ؟

يعرّف جميل صليبا التاريخ فيقول:<< التاريخ في اللغة تعريف الوقت، وتاريخ الشيء وقته وغايته، والتاريخ أيضا علم يبحث في الوقائع والحوادث الماضية(...) وتطلق كلمة تاريخ في أيامنا هذه على العلم بما تعاقب على الشيء في الماضي من الأحوال المختلفة، سواء أكان ذلك الشيء ماديا أم معنويا كتاريخ الشعب، وتاريخ الأسرة، وتاريخ القضاء، وتاريخ النوع الفلاني من الأحياء، وتاريخ العلم، وتاريخ الفلسفة، وتاريخ الأدب، وتاريخ اللغة الخ...وتطلق أيضا على الأحوال المتعاقبة التي مرت بها البشرية، فمنها ما يعرف بالأخبار والتقاليد والآثار كما في علم التاريخ، ومنها مالا سبيل إلى معرفته بهذه الوسائل، كما في علم ما قبل التاريخ >>[11].

إذا كان هناك اهتمام بالتاريخ من قبل العرب المسلمين قبل ابن خلدون، إلا أن الكتابة التاريخية قبل ابن خلدون اتسمت بتغليب الرواية على الدراية؛ أي أنها كانت مقصورة على سرد الوقائع والأخبار دون اخضاعها للنقد والتمحيص، أما لدى ابن خلدون فالتاريخ ليس مجرد سرد للحوادث، وإنما هو تعليل لها ويتجلى ذلك في تعريفه للتاريخ الذي ميز من خلاله بين جانبين في التاريخ هما: الظاهر والباطن. ويقول ابن خلدون في تعريفه للتاريخ:<< إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول

فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق >>[12].

يتضح من خلال تعريف ابن خلدون للتاريخ، أن هناك معنيين للتاريخ هما: معنى ظاهر عام، ومعنى باطن خاص، الأول يفيد أن التاريخ عبارة عن سرد روائي ينشغل به العوام و يتكلم في كل المواضيع دون ضوابط معلومة، غايته المتعة و جاذبه المبالغة لشد انتباه المنصتين، أما الثاني فيفيد أن التاريخ نظر عقلي في الوقائع ، و بحث في أسبابها الموضوعية و كيفية حدوثها. و أما حين نغوص لاستشفاف القوانين التي تتحكم فيها و تكمن خلف الأحداث، فنحن أمام جانب آخر في التاريخ، فنحن أمام سنن التاريخ أو قوانينه، و هو ما نسميه اليوم فلسفة التاريخ.

ب–العمران :

يعتبر ابن خلدون من المفكرين الأوائل الذين كان لهم السبق في تناول الظواهر الاجتماعية والتي يسميها ابن خلدون بواقعات العمران، والعلم الذي يدرس هذه الظواهر يدعى بعلم العمران، لكن قبل تناول هذا العلم، نحاول تحديد مصطلح العمران عند ابن خلدون.

إن الترجمة الحرفية لاصطلاح العمران هي"الحياة الاجتماعية"، إلا أن مفهوم الحياة الاجتماعية في حد ذاته واسع ومتعدّد المعاني والدلالات، لكن ابن خلدون في المقدمة شرح هذا المصطلح، إذ يقول عن العمران: "هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير، و اقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش" 13. وهنا يتضح أن العمران عند ابن خلدون يعتبر عملا جماعيا حقيقيا للبشر، لكنه مشروط

باحتياجات مادية، كما أن العمران يشمل جميع ظواهر المجتمع من ملك وكسب وعلوم وصنائع وغيرها.

أما فيما يخص العلم الذي يدرس أحوال العمران فيسمى عند ابن خلدون بعلم العمران، والذي يدل على البحوث التي تدرس ظواهر الاجتماع الانساني للكشف عن القوانين المسيّرة لها، وعلم العمران عند ابن خلدون يقترب من علم الاجتماع في اصطلاحنا اليوم.

إذا كان لكل علم موضوعه، فإن موضوع علم العمران لدى ابن خلدون يتمثل في الظاهرات الاجتماعية أو كما سمّاها ابن خلدون في المقدمة "واقعات العمران البشري"أو "أحوال الاجتماع الإنساني" ويقول صاحب المقدمة–مبيّنا موضوع علم العمران في المقدمة – :" ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع" [14].

ج–علاقة التاريخ بالعمران في الفكر الخلدوني:

إن المتتبع للفكر الخلدوني يجد أنه يتّسم بالشمولية؛ إذ تضمنت المقدمة العديد من المسائل المتنوعة، لكن ما يهمنا في هذا السياق العلاقة بين التاريخ وعلم العمران، وبخصوص ذلك يجب التأكيد على أن ابن خلدون مزج بين هذين المجالين؛ إذ تداخل في فكر ابن خلدون علمه الاجتماعي مع فلسفته في التاريخ، وإذا كان المفكرون قد اختلفوا حول ما إذا كان ابن خلدون عالم اجتماع أو فيلسوف تاريخ، فالحقيقة أنه جمع بين المجالين؛ فالمقدمة تشمل–كما تشتمل مؤلفات "ماركس" على حد تعبير" ريمون آرون"– بحوثا في النظرية الاجتماعية، وبحوثا في النظرية الاقتصادية، وبحوثا تاريخية[15].

(قال هذا الكلام في كتابه " مراحل الفكر الاجتماعي ص: 145 نقلا عن زينب محمود الخضيري/ فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ص:77)

إذا كان ابن خلدون قد درس واقعات العمران أو ظواهر الاجتماع الإنساني، فإنه فعل ذلك من أجل التاريخ؛ أو بالأحرى كان يهدف من وراء ذلك إلى فهم التاريخ فهما علميا صحيحا، وفي هذا الصدد يقول الدكتور طه حسين:<< إن ابن خلدون يدرس المجتمع ليفسّر التاريخ >>[16].

ومعنى ذلك أن ابن خلدون كان يسعى من خلال علم العمران إلى الكشف عن القوانين التي يمكن استخدامها في تفسير الماضي والتنبؤ بالمستقبل، وإذا فضّل البعض تسمية علم العمران كما جاء به ابن خلدون بفلسفة التاريخ؛ فإن أبسط تعريف لهذه الأخيرة هو النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية، والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي بموجبها تتطور الأمم والدول على مرّ القرون والأجيال[17].

وهكذا تتضح لنا طبيعة العلاقة بين علمي التاريخ والعمران البشري؛ إذ تأخذ شكل العلاقة بين الغاية والوسيلة؛ وكأن التاريخ هو الغاية وعلم العمران بمثابة الوسيلة أو الأداة التي يتحقق بها من صحة النظريات التاريخية ، و تساعد على فهم وتفسير التاريخ بشكل علمي صحيح .

3-قواعد الكتابة التاريخية عند ابن خلدون:

يمكن توضيح قواعد الكتابة التاريخية عند ابن خلدون في جملة من النقاط هي:

- التمييز بين جانبين في التاريخ : ظاهر وباطن، الأول عبارة عن سرد للحوادث التاريخية دون تعليل، أو علم بالكيفيات، أما الجانب الثاني، فهو تعمق في الأحداث وفهمها وتعليلها، يقول ابن خلدون: << إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، (...) وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق >>[18] .
- ربط التاريخ بالعمران وبعلوم أخرى؛ ذلك أن الحادثة التاريخية معقدة ومتداخلة مع حوادث أخرى، ولذلك اشترط على المؤرخ الاطلاع على فنون وعلوم مختلفة، يقول صاحب المقدمة ::<< فإذا يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع و الأعصار في السيّر والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها و دواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث، واقفا على أصول كلّ خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان ، وإلا زيّفه واستغنى عنه >>[19].
- حرص ابن خلدون على ضبط أسباب الغلط في التاريخ، والحث على تجنبها من أجل تجنب تزييف التاريخ، يقول في هذا السياق: <<ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه، فمنها التشيّعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقّه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من

الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله >>[20].

- اعتماد ابن خلدون على جملة من مقومات الروح العلمية؛ وأبرزها: الروح النقدية، المعقولية التاريخية، الموضوعية، السببية التاريخية، الإيمان بمبدأ الحتمية.

***النزعة النقدية :**

قبل الحديث عن النزعة النقدية في الفكر التاريخي عند ابن خلدون، نحاول أن نلقي الضوء على الدلالات التي يحملها هذا المصطلح؛ إذ يعني الميل إلى ممارسة النقد والتمحيص والشك المنهجي، وهذا أبرز ما يتميز به العلماء الباحثون عن غيرهم، فهم لا يقبلون أي شيء إلا بعد إخضاعه للتمحيص والتحقق من صحته، وهذا ما سعى ابن خلدون إلى تحقيقه في اهتمامه بالتاريخ .

***المعقولية التاريخية:**

<<المعقولية"LA RATIONALITE" هي مجموع المبادئ والشروط التي توضع، داخل الثقافة الاجتماعية، لأجل جعل فكرة ما أو فعل أو حدث شيئا قابلا للفهم والتعقل والإدراك >>[21].

لم يكن ابن خلدون مجرّد مؤرخ، بل كان منظرا ومؤصلا للفكر التاريخي داخل منظور أراده أن يكون عقليا. فقد نقل الفكر التاريخي من تأصيل مفهوم الخبر في ذاته إلى مستوى هيكلة الخبر داخل أطر مفاهيمية تتميّز نسبيا بالأصالة. أي نقل الفكر التاريخي إلى مستوى مفهمة ،"CONCEPTUAL -ISATION"-، المقاربة التاريخية، بالانفتاح على معطيات نظريته في العمران البشري. وبذلك تغيرت لدى ابن

خلدون معايير صدقية الخطاب التاريخي وبنى العقل التاريخي لذاته معقولية جديدة مخالفة لنظام المعرفة الذي ساد لدى المحدثين[22]. [في عصره]

***الموضوعية:**

قبل استعراض الموضوعية في التاريخ عند ابن خلدون، نحاول تحديد مفهوم هذا المصطلح كما ورد في بعض المعاجم الفلسفية، فيعرّفها جميل صليبافي معجمه بقوله:

<< الموضوعية وصف لما هو موضوعي، وهي بوجه خاص مسلك الذهن الذي يرى الأشياء على ما هي عليه، فلا يشوهها بنظرة ضيقة، أو بتحيّز خاص >>[23]. وهم تقديم ما جرى كما جرى، حسب ليوبولد فون رانكه . Leopold Von Ranke

إذا كان ابن خلدون قد حاول تفسير التاريخ تفسيرا علميا، فإن ذلك يستوجب منه تحرير التاريخ من الذاتية واخضاعه للموضوعية، وذلك لأن هذه الأخيرة تشكل مقوما أساسيا في العلم والبحث العلمي، وقد أشاد الكثير من الدارسين بموضوعية الفكر الخلدوني، إذ يقول عنه "عبد الرحمان مرحبا" بأنه كان يتمتع بالحرية الفكرية والنزاهة العلمية؛ فكان يسجّل الوقائع بموضوعية أخاذة ويبسط تعليله العقلي و نقده المنهجي لكل ما يتناوله من القضايا، إضافة إلى أنه كان مفكرا متزنا لا يصدر أحكاماجارفة ولا جزافية ولا يميل مع عاطفة أو هوى، بل كان يسجّل استنتاجاته بناء على ما يشاهده من وقائع في الاجتماع الإنساني[24]. (الكلمة المشار إليها مأخوذة من المرجع المشار إليه في قائمة المراجع والاقتباسات) .

***السببية التاريخية(التعليل التاريخي):**

قبل استعراض التعليل التاريخي عند ابن خلدون في مجال التاريخ، نحاول تحديد مفهوم هذا المصطلح من خلال العودة إلى بعض المعاجم الفلسفية.

إن الحديث عن السببية التاريخية يقودنا إلى الحديث عن السببية كمبدأ عقلي، ويعّرف الدكتور جميل صليبا السببية (causalité) بقوله:<< هي العلاقة بين السبب والمسبب، ومبدأ السببية (principe de causalité) أحد مبادئ العقل، ويعبّرون عنه بقولهم: لكل ظاهرة سبب أو علة.فما من شيء إلا كان لوجوده سبب، أي مبدأ، يفسر وجوده >>[25].

يرى ابن خلدون أن الظواهر مرتبطة ببعضها ارتباط العلل بالمعلولات، وينطبق ذلك على كل الظواهر في الكون بما في ذلك الوقائع الاجتماعية والحوادث التاريخية، وفي ذلك يقول ابن خلدون:<< إعلم أرشدنا الله وإياك، أنّا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته >>[26].

***الحتمية التاريخية(بالمعنى النسبي):**

قبل تناول قوانين الحتمية في الفكر التاريخي عند ابن خلدون، نحاول تحديد مفهوم هذا المصطلح كما ورد في بعض المعاجم الفلسفية، ومنها المعجم الفلسفي ل "جميل صليبا"والذي عرّف الحتمية بقوله :<<الحتمية (déterminisme) اصطلاح فلسفي حديث يدلّ على معان عديدة أهمها:

1 – الحتمية بالمعنى المشخّص هي القول بوجود علاقات ضرورية ثابتة في الطبيعة توجب أن تكون كل ظاهرة من ظواهرها مشروطة بما يتقدمها أو يصحبها من الظواهر الأخرى.

2 – والحتمية بالمعنى المجرّد هي أن يكون للحوادث نظام معقول تترتب فيه العناصر على صورة يكون كلّ منها متعلّقا بغيره، حتى إذا عرف ارتباط كل عنصر بغيره من العناصر أمكن التنبؤ به، أو إحداثه أو رفعه >>[27].

إن القول بوجود حتمية تحكم الظواهر بمختلف أنواعها، يعني أن هناك نظاما ثابتا يحكمها؛ وهذا ما يعرف بالقوانين في العلم، مع العلم أن القانون العلمي يستمدّ قيمته من مسلّمة الحتمية .

يتجلى استخدام ابن خلدون لفكرة القانون في ربط التاريخ بعلم العمران، فقد أكّد العلاّمة ابن خلدون أن من أبرز أسباب الكذب في التاريخ الجهل بطبائع الأحوال في العمران؛ ومعني ذلك أن واقعات العمران لها قوانين تحكمها، ومعرفة تلك القوانين تجعل المؤرخ أو الراوي في مأمن من الوقوع في المزلاّت، وفي ذلك يقول صاحب المقدّمة:<< فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار–بالإمكان والاستحالة–أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميّز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عرضا لا يعتدّ به و مالا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك، كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار و الصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشكّ فيه >>[28].

4–أثر المنهج التاريخي الخلدوني على الكتابة التاريخية والتاريخ:

لا شك وأن للمنهج التاريخي عند عبد الرحمان بن خلدون، أهمية بالغة على الكتابة التاريخية وعلم التاريخ؛ إذ نقل هذا المنهج الكتابة التاريخية من شكلها السردي الأدبي إلى

شكل جديد وهو الشكل العلمي، كما حول التاريخ من فن يدور حول العبر والعظات الأخلاقية إلى علم قائم بذاته له، له موضوعه ومنهجه الخاص به .

كما يبرز دور المنهج العلمي التاريخي الخلدوني في إضفاء الطابع العقلي الفلسفي على التاريخ، ويتجلى ذلك في إدخال علم العمران على التاريخ، حتى أن من الباحثين من يصنف مقدمة (العبر) على أنها كتاب في فلسفة التاريخ، وقد أشاد الكثير من الدارسين سواء أكانوا عربا أن غربيين بأفكار ابن خلدون في المقدمة، مثل آرنولد توينبي .

رغم ما قدّمه ابن خلدون من مساهمة للفكر التاريخي، إلا أنه قد أوخذ عليه أنه لم يستطع تطبيق المنهج الذي رسمه للمؤرخين في "المقدمة"، كما أنه لم يستخدم الطريق التي نصح بها المؤرخين لتمييز صحيح الأخبار من فاسدها، بل ثبت عن ابن خلدون أنه نقل روايات ضعيفة ليس لها سند موثوق به، وهذا ما دعا المؤرخ الإنجليزي "روبرت فلنت"إلى القول بأن:<< إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ وجدنا من يتفوق عليه من كتّاب العرب أنفسهم، وأما كواضع لنظريات في التاريخ، فإنه منقطع النظير في كل زمان ومكان >>[29]. (أنظر: جميل موسى النجار، علم التاريخ وفلسفته في فكر ابن خلدون منشورات الضفاف بيروت 2013،ط 01، ص 56)

***قائمة المراجع والاقتباسات:**

[1]- نقلا عن:الصغير ابن عمار، الفكر العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،ط3، 1981م،ص 07.

[2]- علي عبد الواحد وافي، مقدمة المقدمة ، ج 1، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2006م، ص 29.

[3]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد ابن تاويت الطانجي، دار الكتب العلمية ، بيروت، سنة 2004م،ص 27.

4-ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطانجي،ص 04.

5- عبد الحليم عويس،كتاب الأمة،العدد 50،وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الدوحة، سنة 1996م،ص 38

6-زينب محمود الخضيري ، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006، ط ؟، ص 18.

7- زينب محمود الخضيري، المرجع السابق، ص 19.

8- المرجع نفسه، ص21

9- المرجع نفسه، ص:21،22،23.

10- عبد الرزاق قسوم، فلسفة التاريخ من منظور إسلامي، دار الكلمة للنشروالتوزيع،المنصورة،مصر،ط1،2005م، ص:10.

11- جميل صليبا، المعجم الفلسفي،ج1، دار الكتاب اللبناني،بيروت،ط؟، 1982م، ص:227،228،229.

12- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي،ج1، ص282.

13- سفيتلاناباتسييفا،ترجمة رضوان ابراهيم،العمران البشري في مقدمة ابن خلدون،الدار العربية للكتاب،ليبيا-تونس 1978، ص 188،189.

14- علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص 179،180.

15- - زينب محمود الخضيري،المرجع السابق، ص 77.

16- المرجع نفسه، ص 66.

17- المرجع نفسه، ص 64.

18- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي،ج1، ص282

19- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي،ج1،ص 320.

20- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي،ج1، ص329،.

21- عبد الحق منصف، مجلة عالم الفكر، العدد1،المجلد 37،يوليو-سبتمبر،2008،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،ص 69

22- عبد الحق منصف، المرجع السابق، ص 71،72.

23- جميل صليبا، المعجم الفلسفي،ج2، ص 450.

24- عبد الرحمان مرحبا، ي تاريخ العلوم عند العرب،منشوراتعويدات ، بيروت، ط2، 1988، ص 495

25- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص 649.

26- نقلا عن:محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر،صفاقس، تونس،2006، ط1، ص 51.

27- جميل صليبا،المعجم الفلسفي،ج1، ص 443.

28- - عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي،ج1، ص 332.

29- جميل موسى النجار، علم التاريخ وفلسفته في فكر ابن خلدون منشورات الضفاف، بيروت 2013، ط 01، ص 56 .